تفسير سورةُ الحج
من آية (70) إلى آية (78)
اللقاء التاسع والأخير

المعنى الإجمالي من آية (55) إلى آية (69):

يقول تعالى: ولا يَزالُ الكافِرونَ المكَذِّبونَ في شَكٍّ مِنَ القُرآنِ إلى أن تأتيَهم السَّاعةُ فَجأةً، وهم على تَكذيبِهم، أو يأتيَهم عذابُ يومٍ عقيمٍ.

المُلكُ والسُّلطانُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، وهو سُبحانَه يقضي بين المؤمِنينَ والكافرينَ؛ فالذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ، لهم النَّعيمُ الدَّائِمُ في الجَنَّاتِ، والذينَ كَفَروا باللهِ ورَسولِه وكذَّبوا بآياتِ القُرآنِ لهم عذابٌ مُخزٍ مُذِلٌّ في جَهنَّمَ.

يقولُ تعالى: والذين خَرَجوا مِن دِيارِهم طَلَبًا لرِضا اللهِ، ونُصرةً لدِينِه، ثم قُتِلوا أو ماتوا؛ لَيَرزُقَنَّهم اللهُ رِزقًا كريمًا حَسَنًا، وإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَهُو خَيرُ الرَّازِقينَ؛ لَيُدخِلَنَّهم اللهُ المدْخَلَ الذي يُحبُّونَه وهو الجَنَّةُ، وإنَّ اللهَ لَعليمٌ بمَن يَخرُجُ في سَبيلِه، ومَن يَخرُجُ طَلَبًا للدُّنيا، حَليمٌ بمن عصاه، فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ.

ذلك، ومَن عاقَبَ مِن العِبادِ مَن اعتَدَى عليه بمِثلِ اعتِدائِه، بالعَدلِ دُونَ زِيادةٍ، ثمَّ ظُلِمَ بالمعاوَدةِ إلى عُقوبتِه؛ فإنَّ اللهَ يَنصُرُه على مَن ظَلَمَه، إنَّ اللهَ لعَفُوٌّ غَفورٌ.

يقولُ تعالى: ذلك النَّصرُ المذكورُ كائِنٌ بسَبَبِ أنَّه سُبحانَه قادِرٌ لا يَعجِزُ عن نُصرةِ مَن شاء نُصرَتَه، ومِن قُدرتِه أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ، وأنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ صَوتٍ، بصيرٌ بكُلِّ فِعلٍ، لا يخفى عليه شَيءٌ. ذلك بأنَّ اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ الذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّ ما يَعبُدُه المشرِكونَ مِن دُونِه مِنَ الأصنامِ والأندادِ هو الباطِلُ الذي لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ، وأنَّ اللهَ هو العليُّ الكبيرُ

يقول تعالى: لقد رأيتَ بِبَصَرِك وعَلِمْتَ بِبَصيرتِك -أيُّها المخاطَبُ- أنَّ اللهَ أنزل مِنَ السَّماءِ مَطَرًا، فتُصبِحُ الأرضُ مُخضَرَّةً بما يَنبُتُ فيها مِنَ النَّباتِ، إنَّ اللهَ لَطيفٌ بعبادِه، ومِن لطفِه استخراجُ النَّباتِ مِنَ الأرضِ بذلك الماءِ، خَبيرٌ، ومن خبرتِه أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرضِ، فيَسوقُ إليها الماءَ لتنبُتَ.

لله سُبحانَه وتعالى ما في السَّمَواتِ والأرض؛ خَلْقًا ومُلْكًا وعُبوديَّةً، كلٌّ مُحتاجٌ إلى تَدبيرِه وإفضالِه، إنَّ اللهَ لَهُو الغنيُّ المحمودُ في كُلِّ حالٍ.

ألم تَرَ أنَّ الله تعالى ذلَّل لكم جميعَ ما في الأرضِ، كالحَيَواناتِ والأشجارِ والأنهارِ، وسهَّل لكم أنواعَ الانتِفاعِ بها، وذلَّل لكم السُّفُنَ تَجري في البَحرِ بقُدرتِه وأمْرِه، فتَحمِلُكم مع أمتِعَتِكم إلى حيثُ تشاؤون

مِن البلادِ والأماكِنِ، ويُمسِكُ السَّماءَ فيَحفَظُها؛ حتى لا تقَعَ على الأرضِ فيَهلِكَ مَنْ عليها، إلَّا بإذنِه سُبحانَه بذلك؟ إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لرَؤوفٌ رَحيمٌ.

وهو اللهُ تعالى الذي أحياكم بأن أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يُميتُكم عند انقِضاءِ أعمارِكم، ثمَّ يُحييكم بالبَعثِ؛ لِمُحاسبتِكم على أعمالِكم، إنَّ الإنسانَ لَجحودٌ لِما ظهَرَ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على قُدرةِ اللهِ ووحدانيَّتِه، جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ فلا يَشكُرُ.

لكُلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ جعَلْنا شريعةً، فهُم عامِلونَ بها، فلا يُجادِلُنَّك -يا مُحَمَّدُ- في شَريعتِك، وادْعُ إلى توحيدِ رَبِّك وإخلاصِ العبادةِ له واتِّباعِ أمْرِه؛ إنَّك لعلى طَريقٍ قَويمٍ لا اعوِجاجَ فيه.

وإنْ أصرَّ كُفَّارُ قَومِك على مُجادَلتِك بالباطِلِ فيما تدعوهم إليه، فلا تُجادِلْهم، بل قُلْ لهم: اللهُ أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فهم معانِدونَ مُكابِرونَ. اللهُ يَقضي ويَفصِلُ بيْنكم يومَ القيامةِ فيما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ مِن أمرِ دينِكم.

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾﴿70﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا قال الله تعالى مِن قَبلُ: اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الحج: 69؛ أتبَعَه بما به يُعلَمُ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بما يَستَحِقُّه كُلُّ أحدٍ منهم، فيقَعُ الحُكمُ منه بيْنهم بالعَدلِ لا بالجَورِ، فقال لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أي: ألم تعلَمْ -يا مُحَمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ كُلَّ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، ويَعلَمُ أعمالَ عِبادِه واختلافَهم، فمُجازيهم على ذلك. موسوعة التفسير

(إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ) أي: إنَّ عِلمَ اللهِ بكلِّ ما يكونُ في السَّماءِ والأرضِ قد أثبَتَه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى كَتَب في اللَّوحِ المحفوظِ ما هو كائنٌ إلى يَومِ القِيامةِ.

كما قال تعالى: (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) [القمر: 53].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ)) رواه مسلم.

قال ابن عثيمين: فيه إثباتُ العِلمِ وإثباتُ الكِتابةِ، وهما المرتبتانِ الأُولى والثَّانيةُ مِن مراتِبِ الإيمانِ بالقَدَرِ، وأمَّا المرتبةُ الثَّالِثةُ: فهي المشيئةُ. والمرتبةُ الرَّابعةُ: هي الخَلقُ.

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) أي: إنَّ إحاطةَ عِلمِ الله بجميعِ ذلك وكتابتَه في كتابٍ هَيِّنٌ سَهلٌ على اللهِ. موسوعة التفسير

قال السعديُّ: (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ وإن كان تصوُّرُه عندَكم لا يُحاطُ به، فالله تعالى يسيرٌ عليه أن يُحيطَ عِلمًا بجميعِ الأشياءِ، وأن يكتُبَ ذلك في كتابٍ مُطابقٍ للواقِعِ).

قال ابن عثيمين: فيه عُمومُ عِلمِ اللهِ. ... لأنَّ صِفةَ العِلمِ متَّى آمَنَ بها الإنسانُ أوجَبَ له ذلك أمْرَينِ: الأمرُ الأوَّلُ: الهُروبُ مِن مَعصيةِ اللهِ، فلا يَجِدُه اللهُ عزَّ وجَلَّ حيث نهاه. الأمرُ الثَّاني: الرَّغبةُ في طاعةِ اللهِ، فلا يَفقِدُه حيثُ أمَرَه؛ لأنَّك متى عَلِمْتَ أنَّ اللهَ عالمٌ بك فإنَّ ذلك يُوجِبُ لك مُراقبةَ اللهِ سُبحانَه؛ فلا يَفقِدُك حيثُ أمَرَك، ولا يَجِدُك حيثُ نهاك.

قال ابن القيم: فاللهُ سُبحانَه قد عَلِمَ قَبلَ أنْ يُوجِدَ عِبادَه أحوالَهم، وما هُم عامِلون، وما هُم إليه صائِرون، ثمَّ أخرجَهم إلى هذه الدَّارِ؛ ليَظهَرَ مَعلومُه الذي عَلِمَه فيهم كما عَلِمَه، وابتَلاهُم مِنَ الأمرِ والنَّهيِ والخَيرِ والشَّرِّ بما أظهَرَ مَعلومَه، فاستَحقُّوا المدحَ والذَّمَّ، والثَّوابَ والعِقابَ بما قام بهم مِنَ الأفعال والصِّفاتِ المطابقةِ للعِلمِ السَّابقِ، ولمْ يَكونوا يَستحِقُّون ذلك وهي في عِلمِه قَبْلَ أنْ يَعمَلوها، فأرسَلَ رُسُلَه، وأنزل كُتُبَه، وشَرَع شرائعَه؛ إعذارًا إليهم، وإقامةً للحُجَّةِ عليهم؛ لئلَّا يقولوا: كيف تُعاقِبُنا على عِلمِكَ فينا، وهذا لا يَدخُلُ تحتَ كَسْبِنا وقُدرتِنا؟! فلمَّا ظَهَر عِلمُه فيهم بأفعالهم، حَصَل العِقابُ على مَعلومِه الذي أظهَرَه الابتلاءُ والاختبارُ، وكما ابتلاهُم بأمْرِه ونَهْيِه ابتلاهُم بما زَيَّنَ لهم مِن الدنيا، وبما ركَّب فيهم مِنَ الشَّهواتِ؛ فذلك ابتلاءٌ بشَرْعِه وأمْرِه، وهذا ابتلاءٌ بقَضائِه وقدَرِه.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ﴿71﴾

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا) أي: ويَعبُدُ المشرِكونَ مِن دونِ اللهِ أصنامًا لم يُنَزِّلِ اللهُ على رُسُلِه حُجَّةً على صِحَّةِ عبادتِها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) [المؤمنون: 117].

(وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ) أي: وليس للمُشرِكينَ عِلمٌ يَقينيٌّ بجَوازِ وصِحَّةِ عِبادةِ الأصنامِ، وإنَّما يَعبُدونَها تقليدًا لآبائِهم. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) [النجم: 23].

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) أي: وما للمُشرِكينَ بسَبَبِ ظُلمِهم مِن ناصرٍ يَنصُرُهم ويُنقِذُهم مِن عذابِ اللهِ، ويَدفَعُ عنهم عِقابَه. موسوعة التفسير

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿72﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذكَر الله تعالى اعترافَ الكافرينَ بما لا يُعرَفُ بنقلٍ ولا عقلٍ؛ ذكَر إنكارَهم لِمَا لا يصحُّ أن يُنكرَ، فقال

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ) أي: وإذا تُتلى على المشرِكينَ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحاتُ الحُجَجِ والدَّلالةِ على توحيدِ اللهِ، وصِدقِ رَسولِه، تتبَيَّنُ في وجوهِهم الغَمَّ والكراهيَةَ، والعُبوسَ والغَضَبَ. موسوعة التفسير

(يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) أي: يَكادُ المشرِكونَ يَبطِشونَ بالذينَ يَتلونَ عليهم القُرآنَ، ويَبْسُطونَ إليهم أيدِيَهم وألسِنَتَهم بالسُّوءِ؛ لشِدَّةِ كراهتِهم وبُغضِهم آياتِ اللهِ وما فيها مِنَ الدَّعوةِ إلى الحَقِّ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) [الشورى: 13].

وقال سُبحانَه: (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) [الزخرف: 78].

(قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ: أفأُخبِرُكم بما هو أشَدُّ عليكم وأكرَهُ إليكم مِمَّا سَمِعتُموه مِنَ القُرآنِ؟ هو النَّارُ التي وعَدَها اللهُ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ. موسوعة التفسير

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أي: وبِئسَ المكانُ الذي يصيرُ إليه هؤلاء المشرِكونَ يومَ القيامةِ: النَّارُ. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: فيه دَليلٌ على أنَّ أهلَ الباطِلِ تَضيقُ صُدورُهم مِن الحَقِّ، وهكذا ترى أهلَ البِدَعِ المضِلَّةِ: إذا سَمِعَ الواحِدُ منهم ما يتلوه العالِمُ عليهم من آياتِ الكِتابِ العَزيزِ أو مِنَ السُّنَّةِ الصَّحيحةِ مُخالِفًا لِما اعتَقَده مِن الباطِلِ والضَّلالةِ، رأيتَ في وَجْهِه مِن المنكَرِ ما لو تمكَّن مِن أن يَسطوَ بذلك العالِمِ لفَعَل به ما لا يَفعَلُه بالمشرِكينَ! واللهُ ناصِرٌ الحَقَّ، ومُظهِرٌ الدِّينَ، وداحِضٌ الباطِلَ، ودامِغٌ البِدَعَ، وحافِظٌ المتكَلِّمينَ بما أخَذه عليهم، المبَيِّنينَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكيلُ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ﴿73﴾

مناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ يَعبُدونَ ما لا دَليلَ على عبادتِه لا مِن سَمعٍ ولا مِن عَقلٍ، ويَترُكون عبادةَ مَن خلَقَهم؛ ذكَرَ ما عليه مَعبوداتُهم مِن انتِفاءِ القُدرةِ على خَلقِ أقَلِّ الأشياءِ، بل على رَدِّ ما أخَذَه ذلك الأقَلُّ منه، وفي ذلك تجهيلٌ عَظيمٌ لهم؛ حيثُ عَبَدوا مَن هذه صِفَتُه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) أي: يا أيُّها النَّاسُ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للآلِهةِ التي يَعبُدُها المشرِكونَ، فأنصِتُوا لهذا المثَلِ، وتفهَّموا ما احتَوى عليه. موسوعة التفسير

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) أي: إنَّ الذين تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها، لن يَقدِروا على خَلقِ ذُبابةٍ واحِدةٍ، ولو تَعاونوا جميعًا على ذلك. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) [النحل: 20].

(وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) أي: وإنْ يَختَطِفِ الذُّبابُ ويَختَلِسْ مِنَ الأصنامِ شَيئًا ممَّا عليها مِن طِيبٍ أو مما يُجعَلُ لها مِن طَعامٍ ونحوِه، لا تَستطِعِ الأصنامُ أن تَرُدَّ ما استَلَبَه الذُّبابُ، مع ضَعفِه وحَقارتِه. موسوعة التفسير

(ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) أي: ضعُفَت الآلِهةُ المعبودةُ مِن دُونِ اللهِ -كالأصنامِ- وعَجَزت عن استِنقاذِ ما يَسلُبُه الذُّبابُ منها، وضعُفَ الذُّبابُ، وضَعُفَ العابِدُ لغير الله، وضعُف معبودُه، فكيف يَعبُدُ المشرِكونَ ما لا قُدرةَ له على خَلقِ ذُبابٍ، ولا على رَدِّ ما استَلَبَه منه. موسوعة التفسير

يروى ان الصحابي الجليل أبا ذر رضي الله عنه ذهب ذات يوم ليقدم القربات والطاعة والولاء لصنمه في الجاهلية فوجد ان الثعلبان وهو ذكر الثعالب يبول على راسه فوقف مدهوشا فانشد متعظا معتبرا فقال: -

أرب يبول الثعلبان برأسه * * * لقد ذل من بالت عليه الثعالب

فلو كان ربا كان يمنع نفسه * * * فلا خير في رب نأته المطالب

برئت من الأصنام في الأرض كلها * * * وآمنت بالله الذي هو غالب

قال ابن القيم: قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ... فتأمَّلْ هذا المثَلَ الذي أمَرَ النَّاسَ كُلَّهم باستماعِه؛ فمَن لم يَستَمِعْه فقد عصى أمْرَه: كيف تضَمَّنَ إبطالَ الشِّركِ وأسبابِه بأصَحِّ بُرهانٍ في أوجَزِ عِبارةٍ وأحسَنِها وأحلاها؟ وأسْجَلَ على جميعِ آلهةِ المشرِكينَ أنَّهم لو اجتَمَعوا كُلُّهم في صعيدٍ واحدٍ وساعَدَ بعضُهم بعضًا وعاوَنَه بأبلَغِ المعاوَنةِ لعَجَزوا عن خَلْقِ ذُبابٍ واحدٍ! ثمَّ بيَّن ضَعْفَهم وعَجْزَهم عن استِنقاذِ ما يَسلُبُهم الذُّبابُ إيَّاه حين يَسقُطُ عليهم! فأيُّ إلهٍ أضعَفُ مِن هذا الإلهِ المطلوبِ، ومِن عابِدِه الطَّالِبِ نَفْعَه وخَيْرَه -على قَولٍ في التَّفسيرِ-؟! فهل قَدَر القَويَّ العزيزَ حَقَّ قَدْرِه مَن أشرَكَ معه آلِهةً هذا شأنُها؟! فأقام سُبحانَه حُجَّةَ التَّوحيدِ، وبيَّن إفكَ أهلِ الشِّركِ والإلحادِ بأعذَبِ ألفاظٍ وأحسَنِها، لم يَستكْرِهْها غُموضٌ، ولم يَشِنْها تطويلٌ، ولم يَعِبْها تقصيرٌ، ولم تُزْرِ بها زيادةٌ ولا نَقصٌ، بل بلَغَت في الحُسنِ والفَصاحةِ والبَيانِ والإيجازِ ما لا يَتوهَّمُ مُتوهِّمٌ ولا يَظُنُّ ظانٌّ أن يكونَ أبلَغُ في معناها منها، وتحتَها من المعنى الجَليلِ القَدْرِ العظيمِ الشَّرَفِ البالِغِ في النَّفْعِ ما هو أجَلُّ مِن الألفاظِ.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿74﴾

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أي: ما عظَّمَ المشرِكونَ اللهَ حَقَّ تَعظيمِه، ولا عَرَفوا صفاتِ كَمالِه حينَ جَعَلوا الأصنامَ الضَّعيفةَ شُرَكاءَ له، فلم يُخلِصوا له العِبادةَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الزمر: 67].

قال ابن القيم: قال تعالى: (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) فلم يَقْدُرِ اللهَ حَقَّ قَدْرِه مَن هان عليه أمرُه فعَصاه، ونهيُه فارتَكَبه، وحَقُّه فضَيَّعه، وذِكْرُه فأهْمَله، وغَفَل قلبُه عنه، وكان هواه آثَرَ عندَه مِن طَلَبِ رضاه، وطاعةُ المخلوقِ أهمَّ مِن طاعتِه، فللَّهِ الفضْلَةُ مِن قلبِه وقولِه وعملِه، هواه المقدَّمُ في ذلك لأنَّه المهمُّ عندَه، يَسْتَخِفُّ بنظَرِ اللَّهِ إليه، واطِّلاعِه عليه بكلِّ قَلْبِه وجوارِحِه، ويَسْتَحي مِن النَّاسِ ولا يَسْتحي مِن اللَّهِ، ويخشَى النَّاسَ ولا يخشَى اللَّهَ، ويعامِلُ الخلقَ بأفضلِ ما يَقْدِرُ عليه، وإنْ عامَل اللَّهَ عامَله بأهونِ ما عندَه وأحقرِه، وإنْ قامَ في خدمةِ مَن يُحِبُّه مِن البشرِ قامَ بالجدِّ والاجتهادِ وبذلِ النَّصيحةِ، وقد أفْرَغ له قلبَه وجوارِحَه، وقدَّمَه على الكثيرِ مِن مصالحِه، حتَّى إذا قامَ في حقِّ رَبِّه -إنْ ساعَد القَدَرُ- قامَ قيامًا لا يَرْضاه مخلوقٌ مِن مخلوقٍ مِثْلِه، وبَذَل له مِن مالِه ما يستَحي أنْ يُواجِهَ به مخلوقًا مِثْلَه، فهل قَدَر اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه مَن هذا وصْفُه.

(إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) أي: إنَّ اللهَ لَقَويٌّ قادِرٌ على خَلْقِ ما يَشاءُ، مَنيعٌ في مُلكِه، غالِبٌ وقاهِرٌ لكُلِّ شَيءٍ، لا يَقدِرُ شَيءٌ دُونَه أن يَسلُبَه مِن مُلكِه شَيئًا، وليس كآلهَتِكم -أيُّها المشرِكونَ- التي لا تَقدِرُ على خَلقِ ذبابٍ، ولا على الامتناعِ منه إذا استَلَبها شيئًا، فكيف تَدْعُونها مِن دونِ الله. موسوعة التفسير

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿75﴾

قال البقاعي: وأيضًا لَمَّا نَصَب اللهُ تعالى الدَّليلَ على أنَّ ما دعاه المشرِكونَ لا يَصلُحُ أن يكونَ شَيءٌ منه إلهًا، بعد أن أخبَرَ أنَّه لم يُنَزِّلْ إليهم حُجَّةً بعبادتِهم لهم، وخَتَم بما له سُبحانَه مِن وَصفَيِ القُوَّةِ والعِزَّةِ، بعد أن أثبَتَ أنَّ له الملكَ كُلَّه؛ تلا ذلك بدَليلِه الذي تَقتَضيه سَعةُ الملكِ وقُوَّةُ السُّلطانِ مِن إنزالِ الحُجَجِ على ألسِنَةِ الرُّسُلِ بأوامِرِه ونواهيه، الموجِبِ لإخلاصِ العبادةِ له، المقتَضي لتَعذيبِ تارِكِها؛ فقال تعالى

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) أي: اللهُ يَختارُ مِنَ الملائِكةِ رُسُلًا، كالذينَ يُرسِلُهم إلى أنبيائِه ومَن شاء مِن عِبادِه، ويَختارُ مِن النَّاسِ أيضًا رُسُلًا يُبَلِّغونهم وَحْيَه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) [الأنعام: 124].

وقال عزَّ وجلَّ: (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا) [فاطر: 1].

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) أي: إنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ شَيءٍ، بصيرٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك سَماعُه لأقوالِ عِبادِه، ورُؤيتُه لهم، فهو يَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ مِن خَلْقِه اصطِفاءَه لرِسالتِه؛ فاختيارُه لهم عن عِلمٍ منه بأنَّهم أهلٌ لهذه الرِّسالةِ. موسوعة التفسير

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿76﴾

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أي: يَعلَمُ اللهُ ما بين أيدِي الرُّسُلِ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، وما خَلْفَهم. موسوعة التفسير

قال السمرقندي: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِن أمرِ الآخرةِ، وَمَا خَلْفَهُمْ مِن أمرِ الدُّنيا.

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه تُرجَعُ جَميعُ أمورِ عِبادِه، فيَحكُمُ بيْنهم يومَ القيامةِ، ويُجازيهم على ذلك. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أي: هو يُرسِلُ الرُّسُلَ يَدْعونَ النَّاسَ إلى اللهِ؛ فمنهم المجيبُ، ومنهم الرادُّ لِدَعوتِهم، ومنهم العامِلُ، ومنهم النَّاكِلُ؛ فهذه وَظيفةُ الرُّسُلِ، وأمَّا الجزاءُ على تلك الأعمالِ فمَصيرُه إلى اللهِ تعالى، فلا تَعدَمُ منه فَضلًا أو عَدلًا).

كما قال تعالى في خاتمةِ سورةِ هُودٍ: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [هود: 123].

قال الرازي: في قَولُه تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ إشارةٌ إلى العِلمِ التَّامِّ، وقَولُه: وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ إشارةٌ إلى القُدرةِ التَّامَّةِ والتفَرُّدِ بالإلهيَّةِ والحُكمِ، ومجموعُهما يتضَمَّنُ نهايةَ الزَّجرِ عن الإقدامِ على المعصيةِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿77﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث خُتِمَتِ السُّورة بالإقبالِ على خِطابِ المؤمنينَ بما يُصلِحُ أعْمالَهم، ويُنَوِّهُ بشأْنِهم، بعْدَ استيفاءِ ما سِيقَ إلى المشرِكينَ من الحُجَجِ والقوارِعِ والنِّداءِ على مَساوي أعمالِهم، حيث كان خِطابُ المشرِكين فاتِحًا لهذه السُّورة، وشاغِلًا لمعْظَمِها، عدا ما وقَعَ اعتراضًا في خلالِ ذلك، فقد خُوطِبَ المشرِكون بـ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أربَعَ مرَّاتٍ. وفي هذا التَّرتيبِ إيماءٌ إلى أنَّ الاشتغالَ بإصلاحِ الاعتقادِ مُقدَّمٌ على الاشتغالِ بإصلاحِ الأعمالِ.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ) أي: يا أيُّها الذينَ آمَنوا، اركَعوا واسجُدوا لله في صَلاتِكم، وذِلُّوا واخضَعوا لرَبِّكم بطاعتِه، مُخلِصينَ له في عبادتِه. موسوعة التفسير

(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أي: وافعَلوا -أيُّها المؤمِنونَ- أنواعَ الخَيراتِ مِمَّا أمَرَكم اللهُ به؛ لعَلَّكم تفوزونَ بما تَرغَبونَ فيه في الدُّنيا والآخِرةِ، وتنجَوْنَ ممَّا ترهبونَه. موسوعة التفسير

قال الثعلبي: (هذه الآيةُ الكريمةُ عامَّةٌ في أنواعِ الخَيراتِ، ومِن أعظَمِها الرَّأفةُ والشَّفَقةُ على خَلقِ اللهِ، ومُواساةُ الفُقَراءِ وأهلِ الحاجةِ).

قال ابن عاشور: في قَولُ اللهِ تعالى: (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ) فيه أمرٌ بإسداءِ الخَيرِ إلى النَّاسِ مِنَ الزَّكاةِ، وحُسنِ المعامَلةِ؛ كصِلةِ الرَّحِمِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكَرِ، وسائِرِ مَكارِمِ الأخلاقِ، وهذا مُجمَلٌ بيَّنَتْه وبيَّنَت مراتِبَه أدِلَّةٌ أُخرى.

قال الشربيني: قَولُ اللهِ تعالى: (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (لعلَّ) كَلِمةُ تَرَجٍّ تُشعِرُ بأنَّ الإنسانَ قَلَّما يخلو في أداءِ فَريضةٍ مِن تَقصيرٍ، وليس هو على يقينٍ مِن أنَّ الذي أتى به مَقبولٌ عندَ اللهِ، والعواقِبُ مَستورةٌ، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له.

علَّق تعالى الفَلاحَ على هذه الأمورِ، فلا طريقَ للفَلاحِ سوى الإخلاصِ في عبادةِ الخالِقِ، والسَّعيِ في نَفعِ عَبيدِه، فمن وُفِّقَ لذلك فله القِدْحُ المعَلَّى مِنَ السَّعادةِ والنَّجاحِ والفَلاحِ. الدرر السنية

كما قال تعالى: (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف: 56].

وقال الله عزَّ وجلَّ: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) [الليل: 5 – 7].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿78﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان الجِهادُ أساسَ العِبادةِ، وهو –مع كَونِه حقيقةً في قِتالِ الكُفَّارِ– صالِحٌ لأنْ يَعُمَّ كُلَّ أمرٍ بمَعروفٍ ونَهيٍ عن مُنكَرٍ؛ بالمالِ والنَّفسِ، بالقَولِ والفِعلِ، بالسَّيفِ وغَيرِه، وكُلَّ اجتِهادٍ في تَهذيبِ النَّفسِ وإخلاصِ العَمَلِ– ختَمَ به، فقال تعالى

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) أي: جاهِدوا –للهِ ومِن أجْلِه– أنفُسَكم، وجاهِدوا الشَّيطانَ والكفَّارَ وأهلَ الظُّلمِ والزَّيغِ والهوَى جهادًا خالصًا لوجهِ الله؛ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم، مُستَفرِغينَ فيه طاقتَكم. موسوعة التفسير

وقال ابنُ الجوزي: (فأمَّا حَقُّ الجِهادِ ففيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: أنَّه الجِدُّ في المجاهَدةِ، واستيفاءُ الإمكانِ فيها. والثَّاني: أنَّه إخلاصُ النيَّةِ لله عزَّ وجلَّ. والثَّالِثُ: أنَّه فِعلُ ما فيه وَفاءٌ لحَقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ).

كما قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) [التوبة: 73].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جاهِدوا المشرِكينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم)) صححه الألباني.

وعن فَضالةَ بنِ عُبَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المجاهِدُ مَن جاهَدَ نَفسَه)) صححه الألباني

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ) أي: اللهُ هو الذي اختاركم –أيُّها المؤمِنونَ– لاتِّباعِ دينِه، ونَصْرِه، والجِهادِ في سَبيلِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران: 110].

وعن أبي عِنَبةَ الخَوْلانيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَزالُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَغرِسُ في هذا الدِّينِ بغَرسٍ يَستَعمِلُهم في طاعتِه)) صحيح سنن ابن ماجه

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) أي: وما جعل اللهُ عليكم -أيُّها المؤمنونَ- مِن ضِيقٍ وعُسرٍ ومشقَّةٍ في دِينِ الإسلامِ، بل يسَّرَ لكم هذا الدِّينَ غايةَ التيسيرِ. موسوعة التفسير

قيل: أنَّه سُبحانَه ما جعَلَ عليهم حَرَجًا بتَكليفِ ما يَشُقُّ عليهم، ولكِنْ كَلَّفَهم بما يَقدِرونَ عليه، ورَفَع عنهم التَّكاليفَ التي فيها حَرَجٌ، فلم يتعَبَّدْهم بها؛ ومن ذلك: قَصرُ الصَّلاةِ في السَّفَرِ، والإفطارُ في رَمَضانَ فيه، وصلاةُ العاجِزِ عن القيامِ قاعِدًا، وإباحةُ المحظورِ للضَّرورةِ. الدرر السنية

قال تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) قال السعدي: يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ قاعِدةٌ شَرعيَّةٌ، وهي أنَّ (المشقَّةَ تَجلِبُ التَّيسيرَ)، و(الضَّروراتُ تُبيحُ المحظوراتِ)، فيَدخُلُ في ذلك مِنَ الأحكامِ الفَرعيَّةِ شَيءٌ كثيرٌ مَعروفٌ في كُتُبِ الأحكامِ.

قال الله تعالى: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، قال ابن تيمية: فقد أخبَرَ أنَّه ما جَعَلَ علينا في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، ونفاه نفيًا عامًّا مؤكَّدًا، فمَنِ اعتقدَ أنَّ فيما أمَرَ اللهُ به مِثقالَ ذرَّةٍ مِن حَرَجٍ، فقد كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه، فكيف بمَن اعتقدَ أنَّ المأمورَ به قد يكونُ فَسادًا وضَررًا لا مَنفعةَ فيه ولا مَصلحةَ لنا؟! ولهذا لَمَّا لم يكُنْ فيما أمَرَ اللهُ ورَسولُه حَرَجٌ علينا، لم يكُنِ الحَرَجُ من ذلك إلَّا مِن النِّفاقِ، كما قال تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا النساء: 65، وقال الله تعالى فيما أمَرَ به مِن الصِّيامِ: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ البقرة: 185، فإذا كان لا يُريدُ فيما أمَرَنا به ما يَعسُرُ علينا، فكيف يريدُ ما يكونُ ضَررًا وفَسادًا لنا بما أمَرَنا به إذا أطعناه فيه.

كما قال تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة: 185].

وقال عزَّ وجلَّ: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) [النساء: 28].

وقال تبارك وتعالى: (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) [المائدة: 6].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا نزَلَت هذه الآيةُ: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ البقرة: 284، قال: دخَلَ قُلوبَهم منها شَيءٌ لم يَدخُلْ قُلوبَهم مِن شَيءٍ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: سَمِعْنا، وأطَعْنا، وسَلَّمْنا. قال: فألقى اللهُ الإيمانَ في قُلوبِهم، فأنزل اللهُ تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا البقرة: 286، قال: قد فعَلْتُ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا البقرة: 286، قال: قد فعَلْتُ، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا البقرة: 286، قال: قد فعَلْتُ))رواه مسلم

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قيل لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّ الأديانِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ)) صحيح الجامع.

قال الشنقيطي: فيه بيانُ أنَّ هذه الحنيفِيَّةَ السَّمحةَ الَّتي جاءَ بها نبيُّنا مُحَمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، أنَّها مَبْنِيَّةٌ على التَّخفيفِ والتَّيسيرِ، لا على الضِّيقِ والحرجِ، وقد رَفَعَ اللَّهُ فيها الآصارَ والأغلالَ الَّتي كانت على مَنْ قبْلَنا.

قال ابن القيم: إنَّ حَقَّ تُقاتِه وحَقَّ جِهادِه سُبحانَه في قَولِه تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) [آل عمران: 102]، وقَولِه: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) هو ما يُطيقُه كلُّ عَبْدٍ في نَفْسِه، وذلك يختَلِفُ باختِلافِ أحوالِ المكلَّفينَ في القُدرةِ والعَجزِ، والعِلمِ والجَهلِ؛ فحَقُّ التَّقوى وحقُّ الجِهادِ بالنِّسبةِ إلى القادِرِ المتمَكِّنِ العالِمِ شَيءٌ، وبالنِّسبةِ إلى العاجِزِ الجاهِلِ الضَّعيفِ شَيءٌ، وتأمَّلْ كيف عَقَّبَ الأمرَ بذلك بقَولِه تعالى: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، والحَرَجُ: الضِّيقُ، بل جَعَلَه واسِعًا يَسَعُ كلَّ أَحَدٍ.

(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) أي: وما جعَلَ عليكم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، بل وسَّعه كمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ. موسوعة التفسير

قال الرازي: المقصودُ مِن ذِكرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ التَّنبيهُ على أنَّ هذه التَّكاليفَ والشَّرائِعَ هي شَريعتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والعَرَبُ كانوا مُحِبِّينَ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم مِن أولادِه، فكان التَّنبيهُ على ذلك كالسَّبَبِ لصَيرورتِهم مُنقادينَ لِقَبولِ هذا الدِّينِ.

وقال سُبحانَه: (فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [آل عمران: 95].

وقال عزَّ وجلَّ: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [النحل: 123].

(هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا) أي: اللهُ سمَّاكم المسلِمينَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ في كُتُبِ الأنبياءِ السَّابقةِ، وسمَّاكم المسلِمينَ أيضًا في هذا القُرآنِ. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [آل عمران: 64].

وعن الحارِثِ الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... ومَن دعا بِدَعوى الجاهليَّةِ، فهو مِن جُثا جَهنَّمَ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وإنْ صام وإن صلَّى؟ قال: وإن صام وإن صَلَّى وزعَمَ أنَّه مُسلِمٌ، فادْعُوا المسلِمينَ بأسمائِهم؛ بما سَمَّاهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ: المسلِمينَ المؤمِنينَ عبادَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ)) صححه الألباني

(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) أي: اجتَباكم اللهُ وفضَّلَكم، ونَوَّهَ باسمِكم؛ لِيَكونَ الرَّسولُ -الذي هو خَيرُكم- شَهيدًا عليكم يومَ القيامةِ أنَّه قد بلَّغكم رسالةَ ربِّه، وتكونوا شُهَداءَ على جَميعِ الأُمَمِ أنَّ رُسُلَهم قد بلَّغوهم ما أرسَلَهم اللهُ به. موسوعة التفسير

كما قال سُبحانَه: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: 143].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُدعَى نوحٌ يَومَ القيامةِ، فيَقولُ: لبَّيكَ وسَعْديكَ يا رَبِّ، فيقولُ: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعَمْ، فيُقالُ لأُمَّتِه: هل بلَّغَكم؟

فيقولونُ: ما أتانا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن يَشهَدُ لك؟ فيقولُ: مُحَمَّدٌ وأمَّتُه. فتَشهَدونَ أنَّه قد بلَّغَ: وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا البقرة: 143)) رواه البخاري.

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) أي: قابِلُوا تلك النِّعمةَ العَظيمةَ بالقيامِ بشُكرِها، فأقيمُوا -أيُّها المسلِمونَ- الصَّلاةَ للهِ بحُدودِها وأركانِها، وأعطُوا زَكاةَ أموالِكم لِمُستحقِّيها. موسوعة التفسير

(وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ) أي: وثِقُوا باللهِ وتوَكَّلوا عليه في جَميعِ أمورِكم، واعمَلوا بوَحْيِه وتَمَسَّكوا به؛ لأنَّه وليُّكم وحافِظُكم، ومُدَبِّرُ أمورِكم، وناصِرُكم على أعدائِكم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [آل عمران: 101].

وقال سُبحانَه: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق: 3]

(فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) أي: فنِعْمَ المولى هو سُبْحانَه، ونِعْمَ النَّاصِرُ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: فمتى اعتصَمْتُم به سُبحانَه تولَّاكم ونصَرَكم على أنفُسِكم وعلى الشَّيطانِ، وهما العدوَّانِ اللَّذانِ لا يُفارِقانِ العبدَ، وعداوتُهما أضَرُّ مِن عَداوةِ العَدُوِّ الخارِجِ؛ فالنَّصرُ على هذا العدوِّ أهمُّ، والعَبدُ إليه أحوَجُ، وكمالُ النُّصرةِ على العَدُوِّ بحَسَبِ كَمالِ الاعتصامِ باللهِ.

قال ابن القيم: والاعتِصامُ به نوعانِ: اعتِصامُ توكُّلٍ واستعانةٍ، وتَفويضٍ ولَجَأٍ وعِياذٍ، وإسلامُ النَّفْسِ إليه، والاستِسلامُ له سُبحانَه. والثاني: اعتِصامٌ بوَحْيِه، وهو تحكيمُه دونَ آراءِ الرِّجالِ ومقاييسِهم ومَعقولاتِهم، وأذواقِهم وكُشوفاتِهم ومَواجيدِهم، فمَن لم يكُنْ كذلك فهو مُنسَلٌّ مِن هذا الاعتصامِ؛ فالدِّينُ كُلُّه في الاعتصامِ به وبحَبلِه؛ عِلمًا وعمَلًا، وإخلاصًا واستِعانةً، ومُتابعةً واستِمرارًا على ذلك إلى يومِ القيامةِ.

الاعتصامُ بالله هو اللُّجوء إليه، والاحتِماء به، والامتِناع به، والتوكُّل عليه، وهو سبيل المؤمنين، ومنهاج حياتهم، وثَمرة الاعتِصام بالله أن يُدافع اللهُ عن عباده المؤمنين؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]، وأن يَنصُرهم على عدوِّهم؛ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51]، وقد أَمَرَ اللهُ عبادَه المؤمنين بالاعتصام به سبحانه في مواضع عديدة مِن كتابه الكريم؛ فأمَرَ اللهُ سبحانه عبادَه المؤمنين بعبادتِه وحده لا شريك له، وبالجهاد في سبيل الله بأموالِهم وأنفُسِهم وألسنتِهم، والاعتِصام به سبحانه، فهو ناصِرُهم والمدافع عنهم.

(نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)، أي: نِعْمَ المدبِّرُ لِشُؤونِكم، ونِعْمَ النَّاصِرُ لكم. والنَّصِيرُ مُبالَغةٌ في النَّصرِ؛ أي: نِعْمَ المولى لكم، ونِعْمَ النَّصيرُ لكم، وهذا الإنشاءُ يَتضمَّنُ تَحقيقَ حُسْنِ ولايةِ اللهِ تعالى وحُسْنِ نَصْرِه، وبذلك الاعتبارِ حَسُنَ تَفريعُه على الأمْرِ بالاعتصامِ به، وهذا مِن بَراعةِ الخِتامِ.

إذا كان الاعتِصام بالله هو سبيل الهداية والنَّجاة في الدُّنيا والآخرة، فكيف نحقِّق هذا الاعتِصام؟

الاعتِصام بالله يكُون بالترقِّي عن شهود غير الله في نفعِه وخيْرِه، وتأثيره وعطائه ومنْعه، فالمُلْكُ كلُّه لله، هو مالك المُلْك، مُدَبِّر الأمْر، وما يفعله العباد إنَّما هو بتقدير الله عزَّ وجلَّ لِيَبْلُوَ ويَختبر، فيضلُّ مَن

يشاء ويهدي مَن يشاء، ويُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء، ويُعطي مَن يشاء، ويمنَع فضله عمَّن يشاء، وهذا يكون بمعرفة الله عزَّ وجلَّ بربوبيَّته وألوهيَّته وأسمائِه الحُسْنَى وصِفاتِه العُلى؛ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 26].

ولا يحقِّق العبدُ هذا إلَّا إذا اعتَصَم بخبر اللهِ عزَّ وجلَّ؛ أي: بالوحي قرآنًا وسُنَّة، استِسْلامًا بتعظيم الأمْر والنَّهي وأحكام الشَّرع؛ لأنَّ ذلك مِن تعظيم الآمِر النَّاهي سبحانه وتعالى، وبالتَّصديق بالوعد والوعيد، بالرَّغبة والرَّهبة، والرَّجاء والخوف، بالطَّمع في الجَنَّة والخوف مِن النار، وتَحقيق الخشية مِن الله الَّتي هي علامة العُلماء العاملين؛ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، وبتأسيس المعامَلة مع الله عزَّ وجلَّ على اليقين والإنصاف.

أمَّا تأسيس المعامَلة مع الله عزَّ وجلَّ على اليقين الَّذي لا شكَّ معه ولا تَردُّد، فقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أَشهَد أن لا إلهَ إلَّا الله وأنِّي رسولُ الله، لا يَلقَى اللهَ بِهِما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلَّا دَخَلَ الجَنَّة))؛ مسلم.

فإذا أيْقَنَ القلبُ انبعَثَتِ الجوارحُ لِلقاء الله عزَّ وجلَّ بالأعْمال الصَّالحة، قال سفيان الثَّوري: (لو أنَّ اليقين وقع في القَلْب كما ينبغي، لَطَارَ اشتِياقًا إلى الجَنَّة وهربًا مِن النَّار).

أمَّا الإنصاف في معامَلة الله عزَّ وجلَّ فيكون بأن تُعطي العبوديةَ حقَّها، وألَّا تُنازِع ربَّك في صفاتِ إلهيَّتِه مِن العظَمة والكبرياء والجبروت؛ بل تَعْلم أنَّك عبد فتذلَّ لربِّك وخالقِك ومولاك، وأنْ تعرِف نِعَم الله عليك فتشْكره، ولا تشكُر سِوَاهُ على نِعَمِه وتنساه، كحال الَّذين يعرفون نِعْمَة الله ثم ينكرونَها، وألَّا تَحمَد على رزقِه غيرَه، وألا تستعين بنعمِه على معاصيه.

وأمَّا الإنصاف مع عباد الله، فأنْ تُعَامِلَهم بمثْل ما تحبُّ أن يُعامِلوك به، وأنْ تُنْصِفَهم مِن نفْسِك بسلوك مَسْلَك العدْل فيهم، فيَسْلم المسلِمون مِن لسانِك ويَدِك، ويأمنوك على أموالهم وأنفُسِهم، والمعصومُ مَن عَصَمه اللهُ تعالى.

والاعتصام بحبْل الله؛ أي: بدِينِه وكِتابِه وهدْيِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وهدْي الخُلفاء الرَّاشدين مِن بَعده، الاعتِصام بالجماعة ونبْذ الفرقة، وكما يقول العُلماء: أن تُحافظ على طاعة الله عزَّ وجلَّ مُراقِبًا لأمْره، فتقوم بالطَّاعة لأجل أنَّ الله يأمُر بها ويحبُّها لا لمجرَّد التقْليد أو الاعتِياد، فتعمل بطاعة الله على نورٍ مِن الله ترْجو ثوابَ الله، وتترُك معصية الله على نورٍ مِن الله، تخاف عقابَ الله.

فما أحْوجَ الأمَّةَ في زمن الغُثاء أن تُراجع دينَها، وأن تَعتَصم بربِّها وبِدِينِ ربِّها، وأن تترك أسباب الفُرقة والضَّلال!

((اللَّهُمَّ أصلِحْ لنا ديننَا الذي هو عِصْمةُ أمْرِنا، وأصلِحْ لنا دُنيانا الَّتي فيها مَعاشُنا، وأصلِحْ لنا آخرَتَنا التي إليْها مَعادُنا، واجعَل الحياةَ زيادةً لنا في كلِّ خيرٍ، واجعَل الموْتَ راحةً لنا مِن كلِّ شَرٍّ))؛ مسلم.